زكي ناصيف
غائب يملأ علينا حضورنا

وفاء عواد

تحت يوسف حويك

ستّ سنوات مضت على غيابه، كأنّها الأمس، كأنها اليوم. ومازال «ناسك» الموسيقى وشاعرها غائباً في مشغرة يملأ علينا حضورنا، يترك شلالات فرحه تهدر في بالنا، ويحمل في عينيه المدى ليحيل نبض الأرض وعداً بالقيامة. وها هو يومئ بابتسامته الخجولة إلى زمن استحالت تفاصيله لـ«العابرين في موسم عابر»، ممّن جعلوا الأغنية شراعاً ممزّقاً على أرصفة الموانئ.

هو الغياب الـ«مخديعة»، لم ينطلِ على كثيرين من محبّيه، وهو الوجع الذي يحفره عميقاً هذا الغياب، يأتي بالذات من هذا الزمن الذي تندر فيه السنديانات العتاق. ولذا، فإن ذكراه تمرّ دوماً محمّلةً بضياء العين، ورسوخ الذاكرة، تنأى بها المسافة لتقترب نحونا كلما ابتعد فيها الزمن، تتسلّ بين ازدحام الكلام، لترحّب بالأحباب الذين «طلّوا»، تقول لهم «غبتوا كتير يا حبايب»، وتشاركهم في رحلة طيبة على «درب الغزلان»، وتسهر معهم حتى يحين موعد «قطف مواسمنا».

في 11 آذار 2004، غاب جسد صاحب «راجع يتعمّر لبنان» زكي ناصيف، مطمئناً إلى أنّ أعظم ما في الشجرة ليس ثمارها، ولا أوراقها، بل جذعها النائم تحت التراب. ومنذ ذلك التاريخ، بقي هو ليعلّمنا بصمته كلمة الغياب، ويعلّم «عاشقة الورد» كيف تحبّ حبّاً لا يفطمه عمر، كيف تفرح وتعطي، كيف تثق بالنفس والوطن والحياة، وكيف تنتمي، وهو الذي أدرك بعدما طوى أربعين عاماً من عمره معنى الإنتماء العقائدي، وتحديداً في صفوف النهضة السورية القوميّة الإجتماعيّة، فـ«هذا الإنتماء ليس انتماءً عابراً، بل يستمرّ العمر كله».

فبعد أكثر من 200 أغنية ولحن أضافها إلى تاريخ الموسيقى اللبنانية، مازال يشتعل فينا نهاراً يجيء دائماً في «ديار لنا»، وشمعةً مشعّةً لا تغيب على «دروب الهوى»؛ يأتي إلينا قيامةً تبشّر بعشق جديد، شاهراً ما في الشرايين من وطن، فيستحيل نبيذ دفئه شراباً لمواعيدنا؛ يعلّمنا أن وجودنا في «بلدنا» لا يورق إلا في مواويل التضحيات الكبيرة، إذ لا فرق عنده، اليوم، إن نبت على قبره جذع سنديان، أو ضلع زنبق أبيض موشّح، أو سنبلة مليئة تطعم جوقة عصافير كاملة.

وبين الأمس واليوم، ها هو عاشق الأرض والتراث، وفنّان الطبيعة الريفيّة، يقصّ على «جار الرضا» بعضاً من تفاصيل حكاية الـ 88 عاماً، منح حوالى 70 منها في استلهام التراث الفولكلوري اللبناني، مستقياً مفرداته من المدى الممتدّ أمام ناظريه، من الأودية، السهول، الجبال، الأنهار، الزهر، النسمات، الطير الشادي، الأرزات، والدبكة التي تفوح من خبطتها رائحة الأرض.

وعلى وقع صوت الطاحون، والمجوز، والدبكة في العرزال، ها هي صورته تزورنا حيث نحن، تنهض وتهمس «يا هلا»، وتذكّر بمؤسّس ذاكرة الأغنية اللبنانية، موهبةً وعطاءً وتميّزاً، حيث سما بالفولكلور عن التداول الرخيص ابتداءً من أول لحن له لـ«كيف أنساك، وفي بالي وعيني صورة أنت، على رحب الخيال»، إلى تنقّل عمله بين إذاعة «الشرق الأدنى» عام 1953، و«الإذاعة اللبنانية»، مروراً بإدخاله «الكورَس» على ال غناء في الإذاعات، وانطلاقته الحقيقيّة في مجال صناعة أغنيات الدبكة المستمدّة من روح الفولكلور، حيث أعطى الأغنية الفولكلوريّة هويّتها وشكلها وميزتها في مهرجانات بعلبك ابتداءً من عام 1955، وتحديداً من خلال عمله مع فرقة «الأنوار»، وصولاً إلى تلحينه لكثيرين، ومنهم: فيروز، نصري شمس الدين، وديع الصافي، صباح، وماجدة الرومي.

كان «دولة فنّ»، هكذا قال عنه الفنان الكبير وديع

الصافي، «مظلوماً كان، كجميع العباقرة على هذه الأرض»، أتى إلى الموسيقى من قلبه، وسار دروبها شغوفاً، من طفولته الأولى إلى طفولته الأخيرة؛ من مشغرة، أسفل جبلها وأعلى سهلها، استلهم من الطبيعة ألحانه الخالدة، ففي الحبّ عاشقته هي «عاشقة الورد»، وفي الوطن يقول «نحنا صفّينا النيّة والله معنا». هكذا، بكل بساطة، من عشق الورد إلى تصفية النوايا والله معنا، تتحرّك مفرداته بين الصخور، وفي الروابي الخضراء، وعلى الدوالي والعناقيد.

في الرابع من تموز 1916، أبصرت عيناه النور وسط عائلة ضمّت إلى الوالدين أربعة أشقاء وشقيقتين. تربّى في طفولته على صوت أمه الجميل، مدندنةً الأغاني البلدية، ولا سيما منها «الدلعونا»، التي فكّ لاحقاً طلاسمها، فـ«اكتشفت أن كلمة الدلعونا لا تعني الدلع، لا في لفظها ولا في معناها، على ما كان شائعاً، بل هي مستمدّة من العونة. أذكر أني كنت في صباي أسمع الناس في قريتي يتنادون قائلين: العوني، العوني، كلما أرادوا التعاون في ما بينهم لإنجاز عمل ما لأحدهم، كتشييد بيت، أو لسلق القمح، أو في مواسم القطاف. وبعد تعاونهم لإنجاز مثل هذه الأعمال، وهذا هو مصدر كلمة العونة، كانوا يعقدون حلقات الدبكة مغنّين: على العوني، عَ العوني. ومع الزمن، دغمت هذه الكلمات فأمست: على دلعونا». ومن ثم نشأ على حبّ موسيقى النهضويّين والروّاد الأوائل، والذين كان والده يأتيه بأسطواناتهم، زمن «الفونوغراف» ذي البوق، فكان يستمع شغوفاً إلى أغاني الشيخ سلامة الحجازي، وسيد درويش، والشيخ يوسف المنيلاوي. وفي زمن لاحق، إلى أغاني محمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وروّاد آخرين في الغناء العربي الأصيل.

وهو في السادسة من عمره، انتقلت عائلته من مشغرة الى بيروت. حينها، حمل في الجيب حبّات تراب، وبقايا زعتر، من «فوق جبالنا»، وفي عيونه القمر المعلّق بدراً في سماء مشغرة، وفي خاطره رجع مواويل الحارة الفوقا من مشغرة، وفي ذاكرته مشهد الحصّادين ودارسي القمح بين أغمار المواسم على بيادر البركة، وإيقاعات الدبكة، وأهازيج الفرح، وعبق القشّ والتبن الأصفر. وبعد سنوات، كبر «صبي البيادر» معبّأ الروح من إيقاعات الأرض، ونبض الفصول والمواسم، قبل أن يتسنّى له اكتشاف الموسيقى العالمية من إذاعة موسكو، عبر صندوق راديو ذلك الزمان، سيمفونيات ومقاطع أوبرالية نقلته إلى المقلب الآخر من ثقافة الدنيا.

وفيما أجبر على هجر مقاعد الدراسة، وهو في الثامنة عشرة من عمره، لأسباب صحيّة، لتعرّضه في وقت سابق لكسر في رجله رافقته آثاره طوال حياته، ظلّ من دون هدف محدّد في حياته، معزّزاً ولعه بالموسيقى، إلى أن شجّعه شقيقه الأكبر على الالتحاق بالمعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت. والبداية كانت مع محاولات تلحين بسيطة، وأوّل الألحان التي وضعها كان نشيداً مدرسيّاً لمدرسته الأولى (مدرسة المخلّص).

من إذاعة الشرق الأدنى، والتي أنجز لها لحنه الأول من كلمات محمد يوسف حمّود، إلى الإذاعة اللبنانية، وإلى فرقة الأنوار وأدراج بعلبك، مئات الأغاني، كتابةً وتلحيناً وصوتاً في الوديان والسفوح والجبال لمجد لبنان وألوان الفصول، وأناشيد للحرية. وحينها، كان زكي ناصيف ركناً أساسياً في «عصبة الخمسة»، والتي تأسّست في مواجهة موجة الغناء والموسيقى التي كانت شائعة باللغتين المصريّة والبدويّة، وفي محاولة لاكتشاف لون من الغناء المحلّي الذي يستمدّ من الفولكلور جمله اللحنيّة، و«العصبة» ضمّت بالإضافة إليه توفيق الباشا، والأخوين رحباني، وفيلمون وهبي.

وحينها، أيضاً، وبعد أن توقفت إذاعة الشرق الأدنى عن العمل والبثّ عام 1956، إثر العدوان الثلاثي، أسّس بديع بولس «استديو بعلبك»، وتبنّى البرنامج البلدي الذي قدّمته «العصبة» في بعلبك عام 1957، مطلقةً الليالي اللبنانية الأولى في المهرجانات الدولية بالعمل الفولكلوري «عرس في القرية»، وفيها نالت أغنيتا زكي ناصيف بصوت وديع الصافي «طلّوا حبابنا طلّوا»، و«يا لا لا عيني يا لا لا لا» نجاحاً كبيراً، وذاعت شهرتهما.

وبعد «عرس في القرية»، قدّمت «عصبة الخمسة» على أدراج قلعة بعلبك لوحات فولكلورية حملت عنوان «أرضنا الى الأبد»، في صيف عام 1959. وبناءً على ازدياد الطلب على المهرجانات والفرق الفولكلورية، غناءً وألحاناً ولوحات استعراضية راقصة، نشأت «فرقة الأنوار»، عام 1960، بمبادرة من الصحافي سعيد فريحة، تزامناً مع إطلاق صحيفة «الأنوار».

«هيهات يطلّوا»، «بلدي حبيبي»، «حكيت نجوم الليل»، «أيامنا حكايات»، «حين أقبلت يا منى»، «تسألني الحسناء»، «نزلت تتقل»، «اشتقنا كتير»، «خيام الهنا»، «ما نسي العرزال»، «درب الوادي»، «ناداك عبير زهورنا»، «فوق جبالنا»، «صبّحنا بفجر العيد»، «علّي يا سنابل»، «ميلي يا جنات بلادي». وعلى وقع «دبكة المواسم»، وهب زكي ناصيف الفنّ عمره. فعزف عما يلهيه عنه. قبل أن يغمض عينيه. ناذراً صوته للفرح: فرح الغناء، فرح الإيقاع، فرح اللحن وفرح الحزن، وعزاؤنا، فيما غيره يرحل، أنه الباقي دوماً هنا وهناك وهنالك، تماماً كـ«عين الشحلي» في مشغرة، والتي لم «تستح» يوماً بمائها، ولم «تخجل» من صوتها، بل مازالت «تغنّي» على هواها، ولا تتردّد في أن تفرش ماءها أمام أيّ زائر■